غبرييل غرثيا ماركيث (كولومبيا)

أرملـــة مونتييـــل

لما مات ضون خوسيه مونتييل شعر كل سكان البلدة انهم قد انتقموا، الا أرملته. ولكن مرت عدة ساعات قبل أن يصدق الجميع انه مات حقا. كثيرون منهم استمروا على شكهم بعد ان رأوا في غرفة الميت الجثة بمخدات واغطية كتانية داخل صندوق أصفر مقبب مثل بطيخة. كان محلوق الذقن جيدا، لابسا ثيابا بيضاء وجزمة مبرنقة، ووجهه جعل الذين رأوه يفكرون انه لم يبد قط حيا كما بدا آنئذ. كان هو ضون شيبي مونتييل نفسه الذي تعودوا ان يروه ايام الأحد مستمعا الى قداس الثامنة، الفرق هو انه كان يمسك بيديه مسيحا مصلوبا عوض السوط. لم يقتنع سكان البلدة بأنه ما كان يتصنع الموت حتى تمت لولبة غطاء التابوت وحوط في الضريح العائلي الفخم.

بعد الجنازة، الشيء الوحيد الذي بدا لكل السكان ــ باستثناء الأرملة ــ أنه لا يصدق هو كون خوسيه مونتييل قد مات موتا طبيعيا. بينما كان جميع هؤلاء ينتظرون ان يثقب ظهره بالرصاص في كمين، كانت ارملته متأكدة انها ستراه يموت على سريره شيخا، معترفا وبلا ألم، كقديس عصري. لم تغلط الا في بعض التفاصيل. مات خوسيه مونتييل في ارجوحة النوم ذات اربعاء في الثانية بعد الظهر، بسبب الغضب الذي منعه منه الطبيب. لكن زوجته كانت تنتظر كذلك ان تحضر البلدة كلها الجنازة، وأن تجعل الزهور الكثيرة المرسلة الدار تبدو صغيرة. ولكن لم يحضر سوى موالي النظام مثله والجمعيات الدينية، ولم تدخل الدار غير اكاليل الزهور التي ارسلها المجلس البلدي. أرسل ابنُها من مقر عمله القنصلي بألمانيا وابنتاها الاثنتان من باريس برقيات في ثلاث صفحات. كان بينا انهم كتبوها واقفين، بالمداد العمومي لمكتب البريد، وأنهم مزقوا اوراقا كثيرة قبل ان يتمكنوا من ايجاد 20 دولارا من الكلمات. ما قال احد منهم انه سيرجع. وفي تلك الليلة، بينما كانت ارملة مونتييل تبكي على المخدة التي كان الرجل الذي اسعدها يريح عليها رأسه، عرفت لأول مرة طعم الحقد، في الـ 62 من عمرها. كانت تفكر «سأنعزل الى الأبد». «الأمر بالنسبة الي هو كما لو كانوا جعلوني في صندوق خوسيه مونتييل نفسه. لا أريد ان يبقى اي رابط بيني وبين هذا العالم». كانت صادقة.

تلك المرأة الهشة ــ التي عذبها التطير والتي تزوجت في الـ 20 امتثالا لرغبة والديها بالرجل الوحيد الذي سمح لها برؤيته على مسافة اقرب من الـ 10 امتار ــ لم تكن قط على اتصال مباشر بالواقع. بعد ثلاثة ايام من اخراج جثة زوجها، ادركت من خلال الدموع انها

يجب ان تقاوم، ولكنها لم تتمكن من معرفة اتجاه حياتها الجديدة. كان لابد ان تنطلق من البداية.

كان يوجد بين الاسرار الكثيرة التي اخذها خوسيه مونتييل معه الى القبر سر تركيبة الخزينة. تكلف حاكم البلدة المشكلة. امر بوضع الصندوق في الفناء مسندا الى الجدار، وأطلق شرطيان النار ببندقيتيهما على قفله. وصلت طوال صباح بكامله الى سمع الأرملة الطلقات التي كانت صرخات حاكم البلدة تأمر بها، في دفعات متتابعة. «هذا هو ما كان ينقصنا»، فكرت. «خمس سنين وأنا أتوسل الى الله ان تكف الطلقات، والآن يجب ان اقبل شاكرة ان يطلقوا النار وسط داري» في ذلك اليوم بذلت مجهودا لتركيز ذهنها، منادية الموت، ولكن، ما اجابها احد. كانت قد بدأت تنام لما هز الدار من اساسها انفجار هائل. كانوا قد اضطروا الى نسف الخزينة بالديناميت.

أطلقت أرملة مونتييل زفرة. لم يكن اكتوبر بأمطاره المستنقعية يريد ان ينتهي وكانت هي تحس بالضياع في ابحارها بلا اتجاه وسط فوضى الثروة الفاحشة لخوسيه مونتييل. كان السيد كارميتشاييل الخادم القديم والنشيط للعائلة قد تولى شؤونها. لما واجهت أرملة مونتييل الواقع الحسي لموت زوجها اخيرا خرجت من حجرة النوم لتعتني بالدار. جردتها من كل زخرفة وأمرت بتغليف الأثاث بألوان محزنة، وجعلت اناشيط جنائزية في صور الميت المعلقة على الحيطان. في شهرين من العزلة كانت قد اكتسبت عادة قضم الأظفار. وذات يوم انتبهت ــ بعينين محمرتين منتفختين من كثرة البكاء ــ الى ان السيد كار ميتشاييل يدخل الدار بالمظلة مفتوحة.

ــ سد تلك المظلة ياسيد كار ميتشاييل ــ قالت له ــ بعد كل المصائب التي والتنا لم يكن ينقصنا غير ان تدخل انت بالمظلة مفتوحة.

ووضع السيد كار ميتشاييل المظلة في الركن. كان رجلا اسود عجوزا ذا بَشَرة لامعة ولباس ابيض وفتيحات صنعها بمدية في حذائه للتخفيف من ضغط الكَتَب.

ــ سأخليه هكذا حتى يبس فقط.

ولأول مرة منذ ان مات زوجها فتحت الأرملة النافذة.

ــ ما كَفَتْ كل هذه المصائب، انضاف اليها هذا الشتاء كذلك ــ تمتمت، قاضمة اظفارها ــ. يظهر ان المطر لن يتوقف ابدا.

ــ لن يتوقف لا اليوم ولا غدا ــ قال المدير ــ. هذه الليلة ما خلاني الكتب انام.

كانت هي تثق بالتنبؤات الجوية لكتب السيد كار ميتشاييل. نظرت الى السويحة الموحشة والى الديار الصامتة التي لم تفتح ابوابها لمشاهدة جنازة خوسيه مونتييل، واحست

جينئذ باليأس بأظفارها واراضيها التي لا حدود لها والالتزامات التي لاتحصى والتي ورثتها عن زوجها ولن تتمكن ابدا من فهمها.

ـــ العالم ارتكبت اخطاء في صناعته ـــ قالت ناشجة.

الذين زاروها تلك الأيام دفعتهم تصرفاتها الى التفكير انها فقدت صوابها. لكنها لم تكن قط مفيقة كما كانت وقتئذ. منذ قبل بداية المذبحة السياسية وهي تقضي صباحات اكتوبر الخزينة قبالة نافذة حجرتها مشفقة على الموتى ومفكرة ان لو لم يسترح الله يوم الأحد لتمكن من اكمال صنع العالم.

ـــ كان يجب عليه ان يستغل ذلك اليوم كي لا تبقى هذه الأشياء الكثيرة ناقصة ـــ كانت تقول ـــ في نهاية المطاف كانت الأبدية كلها قدامه ليستريح.

الفرق الوحيد بعد موت زوجها هو انها وقتئذ كان لديها سبب معين لتصور افكار كئيبة.

وهكذا بينما كان اليأس يهلك ارملة مونتييل، كان السيد كار ميتشاييل يحاول ان يتفادى الغرق. لم تكن الأمور تسير سيرا حسنا. بعد ان أصبح سكان البلدة ناجين من خطر خوسيه مونتييل الذي كان يحتكر التجارة المحلية بالارهاب، اخذوا يقومون بعمليات انتقامية. لم يجئ الزبناء المنتظرون، فراب الحليب اثناء الانتظار في جراره التي كانت تملأ الفناء، واختمر العسل في قرباته، وعمر الجبن بدود غليظ في خزانات المستودع المظلمة. في الضريح المزين بمصابيح كهربائية وملائكة من مادة تشبه الرخام، كان خوسيه مونتييل يؤدي عن ست سنين من الاغتيالات والتعسفات. لم يكن احد في تاريخ البلد قد غنى الى تلك الدرجة في وقت قصير كذاك. لما وصل الى البلدة أول حاكم عينته الدكتاتورية، كان خوسيه مونتييل مؤيدا متعقلا لجميع الانظمة قضى نصف حياته لابسا كلسونا قاعدا في باب طحانة الرز التي يملكها. في وقت من الأوقات تمتع بسمعة اعتباره انسانا محظوظا ومؤمنا صادقا، لانه نذر بصوت عال ان يمنح الكنيسة تمثالا ل سان خوسيه في حجم طبيعي اذا ربح في اليانصيب، وبعد ذلك بأسبوع ربح ستة كسور فأوفى نذره. المرة الأولى التي شوهد فيها بحذاء في قدميه كانت وقت وصول الحاكم الجديد. كان هذا نائب شرطة اعسر خشنا جاء بأوامر صريحة لتصفية المعارضين. بدأ خوسيه مونتييل متحولا الى مخبره السري، ذاك التاجر البسيط ذو المزاج الهادئ ـــ شأن السمان ـــ الذي لم يكن يثير اي تخوف، قسم خصومه السياسيين الى اغنياء وفقراء. الفقراء ثقبوا بالرصاص في الساحة العمومية. والأغنياء اعطي اياهم اجل 24 ساعة ليغادروا البلدة. كان خوسيه مونتييل يخطط للمذبحة منزويا مع الحاكم نهارات بكاملها في مكتبه الخانق، بينما كانت زوجته تشفق على الموتى. عند مغادرة الحاكم المكتب كانت هي تقف في طريق زوجها.

ـــ ذاك الرجل مجرم ـــ كانت تقول ـــ. استخدم نفوذك في الحكومة ليأخذوا هذا الحيوان الذي لن يبقي انسانا واحدا في البلدة.

كان خوسيه مونتييل مشغولا جدا ايامئذ، وكان يبعدها دون ان ينظر اليها قائلا : «لا تكوني مهبولة». لم تكن صفقته في الواقع هي موت الفقراء بل طرد الأغنياء. بعد ان كان الحاكم يثقب ابوابهم بالرصاص ويحدد لهم الأجل لمغادرة البلدة، كان خوسيه مونتييل يشتري اراضيهم ومواشيهم بثمن يتولى هو تحديده.

ـــ لا تكن احمق ـــ كانت زوجته تقول له ـــ. ستفلس بسماعدتك اياهم وانقاذهم من الموت جوعا في مكان آخر، وهم لن يشكروا جميلك ابدا.

وكان خوسيه مونتييل الذي لم تكن اشغاله تسمح له حتى بالابتسام يبعدها عن طريقه قائلا :

ـــ إذهبي الى مطبخك ولا يضايقيني هكذا.

على تلك الوتيرة صفيت المعارضة في اقل من عام، وغدا خوسيه مونتييل اغنى واقوى رجل في البلدة. أرسل ابنتيه الى باريس، وتمكن من الحصول على وظيفة قنصلية لابنه في ألمانيا، ثم تفرغ لتوطيد امبراطوريته. لكنه لم يتمكن من الاستمتاع بثروته الهائلة ستة اعوام كاملة.

بعد ان تمت الذكرى الأولى لموته لم تسمع الأرملة السلم يصر إلا تحت ثقل خبر سيئ. كان احدهم يجيء مساء دائما. «اللصوص مرة اخرى» كانوا يقولون. «البارحة ذهبوا بمجموع 50 عجلا». كانت ارملة مونتييل ساكنة في كرسيها الهزاز، قاضمة اظفارها، جاعلة من حقدها غذاءها.

ـــ قلت لك هذا ياخوسيه مونتييل ـــ كانت تقول، متكلمة وحدها ـــ هذه بلدة كنود. انت مازلت ساخنا في قبرك وهاهم جميعا يديرون لنا ظهورهم.

ما رجع الى الدار احد. الآدمي الوحيد الذي رأته في تلك الشهور الطويلة طولا لا نهاية له التي لم يكف فيها المطر عن الهطل، هو المواظب السيد كار ميتشاييل الذي ما دخل قط الى الدار بالمظلة مسدودة. لم تكن الأمور تسير سيرا احسن. كان السيد كار ميتشاييل قد كتب عدة رسائل الى ولد خوسيه مونتييل. اوعز اليه بفائدة ان يجيء ليسير الأعمال بنفسه، بل انه وصل الى السماح لنفسه بالادلاء ببعض الملاحظات الشخصية حول صحة الأرملة. كانت الردود كلها مراوغة. اخيرا اجابه ولد خوسيه مونتييل بصراحة قائلا انه لا يجرؤ على العودة لخوفه من ان يثقبوه بطلقة رصاص. عندئذ صعد السيد كار ميتشاييل الى حجرة الأرملة واضطر الى الاعتراف لها بأن الافلاس لا مفر منه.

ـــ أحسن ـــ قالت هي ـــ. لم اعد احتمل الجبن والذباب. خذ ما انت في حاجة اليه اذا اردت وخلني اموت في سلام.

الرابطة الوحيدة التي وصلتها بالعالم بعد ذلك هي الرسائل التي كانت تكتبها الى بنتيها في اواخر كل شهر. «هذه البلدة تحل بها اللعنة»، كانت تقول لهما. «ابقيا هناك نهائيا، ولا تخافا علي. أنا سعيدة وأنا أعرف انكما سعيدتان». كانت ابنتاها تتناوبان في الرد عليها. رسائلهما كانت دائما مرحة، كان بينا انها كتبت في اماكن فاترة ومضاءة جيدا، وان الفتاتين تريان نفسيهما منعكستين في مرايا كثيرة لما تتوقفان للتفكير. حتى هما لم تكونا تريدان العودة. «هذه هي الحضارة»، كانتا تقولان. «هناك، بالعكس، ليس وسطا مناسبا لنا. يستحيل ان نعيش في بلد متوحش يغتال فيه الناس لأسباب سياسية». كانت أرملة مونتييل وهي تقرأ الرسائل تشعر بأنها في حالة افضل وتستحسن كل جملة برأسها.

وفي ذات مرة تكلمت لها بنتاها عن اسواق اللحم بباريس. كانتا تقولان لها انهم هنالك يذبحون خنازير لونها متورد، ويعلقونها بكاملها في الأبواب مزينة بتيجان وأكاليل ازهار، في النهاية اضافت الرسالة بخط مختلف عن خط ابنتيها : «تصوري ان اكبر وأجمل قرنفولة يجعلونها في عجز الخنزير». ابتسمت ارملة مونتييل لأول مرة بعد عامين وهي تقرأ تلك الجملة. صعدت الى حجرتها دون ان تطفيء اضواء الدار، وقبل ان تنام حولت اتجاه المروحة الكهربائية نحو الحائط. بعد ذلك اخرجت من درج المنضدة مقصا واسطوانة ضماد ومسبحة، وضمدت ظفر الابهام الأيمن الذي هيجه القضم. ثم بدأت تصلي، لكنها بعد قليل بدلت المسبحة الى يدها اليسرى، لأنها ما كانت تحس بالخَرَز عبر الضماد. سمعت للحظة رجة الرعد البعيد. بعدئذ نامت ورأسها محني على صدرها. تدحرجت يدها حاملة المسبحة على جنبها، وعندئذ رأت «الماما الكبيرة» في الفناء بغطاء ابيض ومشط في حجرها، وهي تقتل القمل بإبهامها. سألتها :

ـــ متى اموت ؟

رفعت «الماما الكبيرة» رأسها.

ـــ لما يبدأ دبيب التعب في ذراعك.

ترجمة : محمد العشيري

ـــ هذه القصة القصيرة ظهرت ضمن مجموعة «جنازة الماما الكبيرة» (1962) وحولت الى فلم من طرف المخرج الشيلي المعروف ميغيل ليتين.

عن كتاب :

- TODOS LOS CUENTOS (1947-1972) G. GARCIA MARQUEZ.

PLAZA Y JANES, S.A. EDITORES. 1976.

أوغوسطو روروا باسطوس (الباراغواي)

الارض البـــور

كانا بلا وجه، العرق يقطر منهما والظلام يأكلهما. لم يكن هناك إلا خيالاهما الاديمان بشكل غامض، الجسمان الممتصان في ظلميهما. متشابهان ومع ذلك مختلفان جدا. أحدهما لا حياة فيه، ماش على مستوى الأرض بسلبية البراءة أو باللامبالاة المطلقة. الآخر مقوس لاهث بفعل مجهود جره بين الشجرات والزبل. كان من حين لحين يتوقف ليسترد أنفاسه. ثم يبدأ من جديد مقوسا اكثر عموده الفقري فوق حمله. رائحة المياه الراكدة للنهر لابد أنها كانت في كل مكان، الآن أكثر مع النتونة ذات الحلاوة المنفرة للارض البور التي تنتن بالصدإ وبراز الحيوانات، تلك الرائحة اللزجة بفعل الانذار برداءة الجو التي كان الرجل من حين لآخر يضربها بيده لينتزعها من وجهه. قطيعات من زجاج أو من معدن كانت تتصادم وسط العشب، وإن كان مؤكدا عدم امكانية أن يسمع أحد الاثنين ذاك الغناء الرقيق المواقت الطيفي. ولا ضجة المدينة الخافتة التي كان يبدو هناك أنها تهتز تحت الأرض. والذي يجر ربما كان يسمع فقط ذاك الصوت الرخو الخافت للجسم عند طفره على الارض وفحيح بقايا أوراق أو الضرب الخافت للحذاء على العلب والردم. أحيانا كان ظهر الآخر يعلق بالشجيرات الصلبة أو بحجر. عندئذ كان هو يفكه جارا إياه مغمغما صيحة غاضبة أو مطلقا مع كل جهد الها... الهوائية التي يطلقها الشحانون لما يرفعون الحمل المستعصي على المجهود الكتفي. كان بينا أنه يزداد ثقلا. ليس فقط بفعل تلك المقاومة السلبية التي تتوقف بالحواجز يعناد من حين لآخر. ربما كذلك بسبب خوفه هو والاشمئزاز أو العجلة الآخذة في نهش قواه، دافعة إياه الى الانتهاء بسرعة.

في البداية جره من الذراعين. لو لم تكن الليلة مظلمة الى ذاك الحد لأمكن أن يرى زوجا الايدي المشبوكة، نسخة سلبية من كليشيه يمثل عملية إنقاذ مقلوبة. لما علق الجسم من جديد، أمسك الساقين وأخذ يجره وهو يدير له ظهره وينحني جسمه حنيا الى الأمام ويرتكز بقوة على الحفر. أخذ رأس الآخر يهتز اهتزازا مسرورا، مغتبطا على مايبدو بالتغيير. بعثر مصباحا سيارة فجأة عند منعطف ضوءا ارتمى على شكل موجات على تلال الزبل وعلى العشب وعلى الأرض اللا مستوية. الذي كان يجر استلقى جنب الآخر. اكتسبا للحظة تحت تلك اللمسة الشاحبة شيئا من وجه، أحدهما كاب خائف، الآخر يكسوه تراب، وهو ينظر الى الاشياء لا متأثرا. عاد الظلام الى ازدرادهما بسرعة.

قام وواصل الجر قليلا، لكنهما كانا قد بلغا مكانا شجيراته أكثر ارتفاعا. أصلح وضعه على قدر استطاعته، غطاه بزبل وأغصان يابسة وردم. بدا أنه يريد فجأة حمايته من تلك الرائحة التي كانت تملأ الأرض البور أو من المطر الذي لن يتأخر سقوطه. توقف، أمر يده على جبهته التي يسقيها العرق، سعل وبزق بغيظ. آنئذ سمع ذاك الاستهلال الذي افزعه. كان يصعد ضعيفا مخنوقا من العشب، كما لو أن الآخر بدأ يشتكي ببكاء طفل حديث الولادة تحت ضربه الزبلي.

هم بالهروب، لكنه توقف مبهورا بفعل الومضة الفوتغرافية لبرق قلع أيضا من الظلام الكتلة المعدنية للقنطرة، مريا إياه أنه لم يبتعد كثيرا. حنى رأسه مغلوبا. جثا واقترب وهو يشم تقريبا ذاك الاستهلال الرقيق المخنوق الملح. قرب الكومة كانت توجد حزمة مبيضة. ظل الرجل برهة طويلة لا يعرف ماذا يجب أن يعمل. قام ليذهب، خطا خطوات قليلة مترنحا، لكنه لم يستطع التقدم. الاستهلال كان الآن يجره. رجع شيئا فشيئا، باللمس، لاهثا. عاد الى الجثو وهو مازال مترددا. ثم مد يده. خشخش ورق الحزمة. وسط أوراق الجريدة كان شُكَيْل بشري يتخبط. أخذه الرجل بين ذراعيه. كانت حركته خرقاء نسية، حركة من لا يعرف ماذا يعمل ولكن على كل حال لا مفر له من أن يعمله. انتصب ببطء كما لو كان مشمئزا من حنان فجائي شبيه بالضياع الأشد، وبعد أن خلع سترته، دثر بها المخلوق المبلل المتباكي.

ابتعد بالاستهلال عن العشب، مضاعفا سرعته تدريجيا، جاريا تقريبا، واختفى في الظلام.

ترجمة : محمد العشيري

ـــ آوغوسطو رووا باسطوس. ولد في اسونثيون (الباراغواي) عام 1917. يعيش في المنفى منذ 1947. من أعماله : «ابن إنسان» (رواية 1960) و «أنا الأعلى» (رواية 1974) هو حاليا أستاذ اللغة الغوارانية (لغة هنود الباراغواي) بجامعة تولوز.

عن كتاب :

- ANTOLOGIA PERSONAL. AUGUSTO ROA BASTOS.

EDITORIAL NUEVA IMAGEN. MEXICO 1980.